مكتبة الأستاذ محمد بن بكير أرشوم ببريان وأهمية المخطوطات المصورة بها

أ. يطو عائشة
كلية الآداب، جامعة مستغانم

الحمد لله الذي نزّل على نبينا المصطفى قرآنا عربيا مبينا، أخرج الناس من الظلمات إلى النور والهداية، فأقاموا حضارة هي أعظم الحضارات الإنسانية على الإطلاق.

تدعونا شريعة الرحمن إلى العلم والتعلّم, يقول تعالى:(اِقْرأ) [1] و (إنما يخشى الله من عباده العلماء)[2]. وقال صلى الله عليه وسلم:(العلماء هم ورثة الأنبياء)[3] و (من طلب العلم كان في سبيل الله حتى يرجع)[4].

وإنّ أعظم دليل على تحضر أمتنا وتفوقها العلمي، تلك المصنفات التي خلفها العلماء من أبنائها في شتى العلوم والفنون، فالكتاب"أداة من أهم أدوات الثقافة وأعمقها في نشر المعرفة، التي هي قوام شخصياتنا في الحياة...[وهو] سجلّ المعرفة في صورتها الكاملة، وبواسطته نتعلم ونكسب معارفنا ونصحح أفكارنا ... يساعد على انتشار الأفكار الحرة، ويستنهض الهمم ويقوي العزائم، ويزيد خبراتنا بالحياة ... رسالته أكبر وأعظم شأنا ...كما يعتبر سيد مصادر المعرفة"[5].

وقد تكفل الله بحفظ هذه الذخائر بأن قيّض لها من يودعها في مكتبات عامة أو خاصة، هذه المكتبات مظهر آخر من مظاهر حضارة المسلمين" ساهمت في توسيع نطاق هذه الحضارة وتغذيتها وترقيتها، ولذلك عندما اتسع أفق المسلمين العقلي، وازدهر تقدمهم الحضاري، وتنوعت اهتماماتهم زاد بنفس النسبة عدد المكتبات وتنوعت أغراضها حتى شملت جميع الأغراض التي تؤسس المكتبة من أجلها"[6].

إن تاريخنا قد حفظ لنا أسماء مكتبات كانت تزخر بها بلاد المسلمين، من نحو: بيت الحكمة ببغداد، ومكتبة العزيز بالله الفاطمي بالقاهرة، ومكتبة الزهراء بقرطبة، ومكتبة المعصومة بتيهرت الرستمية.

هذه المكتبات هي مستودع المعرفة الإنسانية وخبراتها، منها عدد كبير في الجزائر [7] أشهرها تلك التي بوادي ميزاب[8]، أغلبها خاصة، تحتوي العديد من المصنفات المخطوطة الأصلية أو المصوّرة.

بريان المدينة البعيدة عن مقر الولاية بخمس وأربعين (45) كيلومترا، عرفت حركة علمية مثل باقي قرى الوادي بفضل مجموعة من أبنائها المثقفين[9] الذين أخذوا العلم خارج بلدهم وعادوا محاولين أن ينشئوا جوّا علميا عاليا يرفع من مستوى منطقة ميزاب. خلف من بعدهم خلف حملوا الراية واجتهدوا في القضاء على الأميّة ففتحوا كتّابا لتحفيظ القرآن حوالي سنة 1912م يرأسه الشيخ الطرابلسي[10] تخرّج على يديه تلاميذ واصلوا رسالته العلمية..."[11] وهكذا تواصلت الجهود في مجال التعليم فأنشئت مدرسة قرآنية سميت "مدرسة الفتح"[12] ما تزال تنشط إلى يومنا هذا.

استمرت الجهود في هذا المجال الحضاري، فكان إنشاء المكتبات الخاصة عن طريق الشراء أو النسخ لمختلف المخطوطات، وهي عادة متوارثة أخذ بها الوزراء والعلماء والأغنياء المسلمون منذ القرون الأولى، رغبة في العلم والتعلم، وتعبيرا عن حبّهم للكتاب. ولم يخرج الإباضيون في الجزائر عن هذه القاعدة فكانوا "يقتنون الكتب النفيسة من المدن المغربية الأخرى أو من المشرق.."[13].

هذه النهضة العلمية التي كان باعثها قطب الأئمة أمحمّد بن يوسف أطفيّش وتلامذته تمخضت عنها- كما أسلفت- هذه المدارس والمكتبات العامة والخاصة ببعض الأفراد.

وفي هذا البحث، أقصر حديثي عن مكتبة الأستاذ محمّد بن بكير أرشوم[14] ببريّان التي تحوي بالإضافة إلى العناوين الكثيرة المطبوعة نسخا خطية[15] مصوّرة[16]بلغت اثنين وثمانين (82) عنوانا كثير منها مجزوء أوله نسخ متعددة. تنقّل بين عدة مكتبات للحصول عليها[17]، ولا نقول عن هذه الجهود هواية، إنما هي عقيدة وإيمان راسخ بقيمة هذا التراث المنكوب، وبالتالي السعي إلى المحافظة عليه بتصويره، وتعبير عن صلة الخلف بالسلف، والرغبة في خدمة التراث وإحيائه وحمايته.

لقد تمّ تصوير أغلب هذه المخطوطات من مكتبات مشهورة بالمنطقة: مكتبة الاستقامة، مكتبة القطب، مكتبة الحاج صالح لعلي ببني يزقن، ومكتبة الشيخ بالحاج بالقرارة[18]، علما أنه لم يشر إلى مكان تصوير بعضها.وها هي ذي المكتبات مرتبة حسب عدد المخطوطات المصورة منها:

مكتبة الاستقامة: اثنان وعشرون (22) مخطوطا.

مكتبة القطب: تسع (9) مخطوطات.

مكتبة صالح لعلي: مخطوط واحد.

مكتبة الشيخ بلحاج: مخطوط واحد.

لم يكتف صاحب المكتبة بالتصوير، وإنما قام بوضع بطاقات فنية لكلّ مخطوط على هذا النّحو:

الرقم: (1–ث)

المؤلف:الشيخ عبد العزيز بن الحاج بن إبراهيم الثميني

العنوان: مختصر حواشي مسند الربيع بن حبيب
لأبي سته عمرو بن محمد.

الموضوع: الحديث

عدد الصفحات: 587

الناسخ: خط المؤلف

مكان وجود الأصل: مكتبة الاستقامة

ملاحظات: انتهى من التأليف يوم 25 شعبان 1204هـ

هذه البيانات وإن كانت ناقصة، فهي تفي بالغرض عند من يريد التعرف السريع على المخطوطة، ولعلّ من البيانات المفتقدة: بداية المخطوط ونهايته، والقياسات، ونوع

الخط، وغيرها من البيانات الهامة[19]. وهناك بطاقات حملت تاريخ التصوير وأخرى أغفلت عدد الصفحات، ومكان وجود الأصل.

جمّعت هذه البطاقات الفنية، ثمّ فهرست إلى أربعة، ثلاثة للفقه، وواحد جمع السنّة وعلوم القرآن واللغة والأدب:

الفهرس الأوّل للفقه، يحمل 21 عنوانا.

الفهرس الثاني للفقه، يحمل 12 عنوانا.

الفهرس الثالث للفقه، يحمل 30 عنوانا.

الفهرس الرابع، يحمل 19 عنوانا.

وإليك بعض العناوين المنتقاة من هذه الفهارس:

جامع حرف ورش، لأمحمد بن يوسف أطفيّش.

مختصر إعراب المنظومة الخزرجية، لعمرو بن رمضان التلاتي.

تعاظم الموجين شرح مرج البحرين، لعبد العزيز الثميني.

مناسك الحج، لأبي طاهر إسماعيل بن موسى الجيطالي النفوسي.

حاشية على تبيين أفعال العباد، لمحمد بن الشيخ يوسف المصعبي.

شرح الدعائم، لأبي القاسم بن إبراهيم البرادي.

إنّ المطلع على هذه الفهرسة تستوقفه عدة ملاحظات هي:

عدد النسخ معتبر، إذ يبلغ (82) عنوانا.

أغلب العناوين فقهية إذ بلغت(63)، وهو ما يؤدي بتأكيد فكرة أنّ منحى التأليف عند الإباضية فقهي لخوفهم من زوال المذهب، وتأكيد اهتمام صاحب المكتبة بهذا المجال الحيوي..

جـــ- أغلب هذه العناوين هي لأعلام إباضية مغاربة وبعضها لمشارقة، قدماء ومحدثين، مثل: هود بن محكم الهواري، وعمرو بن رمضان التلاتي، وأبو طاهر إسماعيل الجيطالي النفوسي، وابن زياد العماني، والشيخ الناصر بن محمد المرموري.

د–كثير من هذه العناوين هي مصادر عند الإباضية، خاصة إذا علمنا أنّ للقطب أطفيّش (23) عنوانا في هذه الفهرسة.

هـ– تواريخ نسخها محصورة ما بين القرنين (11هـ)و(15هـ).

و– هذه النسخ تحفظ النص الأصل في حالة ضياعه.

ز– تقريب النسخ من القارئ عامة، والباحث خاصة, فصاحب المكتبة يعمل على مدّ يد المساعدة للباحثين بوضع هذه المصوّرات تحت تصرّفهم[20] .

ح– ذكر أماكن التصوير يسهّل التعرف على مواطنها، وفي ذلك اقتصاد للجهد والوقت.

ط– إنّ مضامين هذه المخطوطات متنوعة، فكرية، حضارية، وفنية.

ي– هي خير شاهد على عظمة أسلافنا في العطاء العلمي.

ك– هذه النسخ تعرّفنا بالمدرسة الإباضية خاصة في الجانب الفقهي.

ل– وعي صاحب المكتبة بقيمة هذه المخطوطات، إذ أعاد الاعتبار لهذا التراث المنسي وحماه بتصويره، ووصفه، وفهرسته.

وهذا جهد عظيم يستحقّ التنويه، خاصّة بعدما عرفنا أنّ محتوى هذه المكتبة من المخطوطات عالي القيمة من حيث الموضوع والمؤلفين. وهو قد أدرك أهمية المخطوط، وأهمية المكتبة في المجتمع، ولا يدرك هذه الأهمية إلاّ " الشعوب والمجتمعات التي تحيا حياة قوامها العلم، إذ تتّصل حياتها الثقافية والعلمية اتصالا وثيقا بالمكتبة وبالكتب."[21].

يضاف هذا الجهد في تصوير المخطوطات وفهرستها إلى جهود سابقة ولاحقة في خدمة التراث، تتمثل في نسخ المخطوطات، وتصويرها بشتّى الأساليب الحديثة، وتحقيقها ونشرها...إلخ. والتراث الإباضي جزء من تراثنا الذي نفخر به، فقضية التراث" تتسع أبعادها زمانا فتستوعب الماضي والحاضر والمستقبل، كما ترحب مكانا فتتجاوز حدود وطننا العربي إلى العالم الإسلامي الكبير.ثمّ إنّها في جوهرها قضية وجود ومصير بما تكشف عن حقيقة ذاتنا وآماد طاقتنا، وما تضيئ لنا من معالم الطريق وآفاق الطموح"[22].

الهوامـــــش:

1- سورة العلق، آية 1.

2- سورة فاطر، آية 28.

3- صحيح البخاري:كتاب العلم، باب العلم قبل القول والعمل.دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع- بيروت.1981 م ص: 25.

4- الجامع الصحيح(سنن الترمذي): كتاب العلم، باب فضل طلب العلم. تحقيق إبراهيم عطوة عوض. مطبعة مصطفى بابي الحلبي وأولاده –مصر. ط1 – 1965م. رقم: 2647.

5- المكتبات ورسالتها، لحسن رشاد. دار الفكر العربي، ط3، ص:11.

6- تاريخ الكتاب الإسلامي المخطوط، لمحمود عباس حمودة. دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع ، ص: 244.

7- يراجع أسماء بعضها في المقال الموسوم بـــ" من أجل استراتيجية وطنية لحماية المخطوط"، ليحي صالح بوتردين. دورية الحياة، يصدرها معهد الحياة بالقرارة. المطبعة العربية – غرداية. ع4، رمضان 1421هـــ/ ديسمبر 2000م .ص ص: 131 – 132.

8- نحو مكتبة القطب، مكتبة الاستقامة، مكتبة آل يدّر ببني يزقن، مكتبة الإصلاح بغرداية، مكتبة إروان بالعطف، مكتبة الشيخ دبوز ببريان، مكتبة الشيخ بالحاج، مكتبة معهد الحياة بالقرارة، ومكتبة الشيخ مطهري بمليكة.

9- أمثال: الشيخ الداغور الحاج الناصر بن الحاج إبراهيم، واعمارة بن صالح موسى المال، وقرقر الحاج إبراهيم بن صالح.

10- تنظر المعلومات الوافية عن الطرابلسي (ت 1947م) في محاضرة الشيخ بكير بن محمد أرشوم في ذكرى المرحوم الشيخ الطرابلسي. 2 شوال 1409هـــ. (مخطوطة ذات خمس صفحات).

11- الحركة الثقافية بميزاب قبل الاستقلال، لعبد الرحمن بن عمر بكلي. محاضرة (مرقونة) ألقيت خلال الأسبوع الثقافي الجامعي الرابع من 13 إلى 16 فبراير 1986م.ص: 7-8.

12- ينظر ما حدّث به الشيخ بكلي عن هذه المدرسة في محاضرته " الحركة الثقافية بميزاب قبل الاستقلال".ص: 8.

13- الإباضية في المغرب الأوسط، لمسعود مزهودي. نشر جمعية التراث- القرارة . 1996 م. ص: 250.

14- هو أحد الأعضاء النشيطين في جمعية التراث، وأستاذ بالمدرسة القرآنية " الفتح"، ومؤلف كتب مدرسية موسومة بـــ" الواضح في التاريخ الإسلامي" لتلاميذ المدارس الحرة (من السنة الرابعة إلى السنة التاسعة). والده المرحوم الشيخ بكير بن محمد أرشوم أحد أعلام المنطقة. درس بتونس، وتولى إمامة مسجد بريّان. ألّف عدة كتب طبع منها: الموجز في الجنائز، والنبراس في أحكام الحيض والنفاس.

15- " المخطوطات هي كتب لم يتم طبعها بعد ولا تزال بخط المؤلف أو غيره، أو أخذت عنها صور فوتوغرافية". أضواء على البحث والمصادر، لعبد الرحمن عميرة. دار الجيل، بيروت، ط4- 1986م، ص: 61.

16- طريقة التصوير النسخي للمخطوطات، وسيلة تستعملها كثير من المكتبات للحصول على أعداد وافرة منها، إحياء لهذا التراث، مثل: المكتبة الوطنية في العاصمة، ومعهد إحياء المخطوطات العربية التابع لجامعة الدول العربية. ينظر: من أجل استراتيجية وطنية لحماية المخطوط"(الهامش).ص: 136. وفهرس المخطوطات المصورة (المقدمة)، تصنيف فؤاد سيد، القاهرة. 1954م.